من مظاهر الادب العصري

القصص والحكايات المصرية

عن المستشرق جيب[1]

عثمان جلال ، احمد شوقي ، محمد ابراهيم المويلحي ، محمد حافظ ابراهيم ، محمد لطفي جمعة ، حسين هيكل ، عبد الله عنان ، محمد تيمور ، ناولا جداد ، محمد فريد ابو حديد ، المازني .

هؤلاء هم الكتبة القصصيون الذين نالهم المستشرق الانكليزي جيب بدرس خاص نشره في مجلة معهد لندن الشرقي في المجلد السابع في قسمه الاول من هذا العام . وقد وددنا لو يتاح لنا رواية درس الاستاذ بكماله لما فيه من تحليل قيّم ، ونظرات ثاقبة ، وعبر يفيدنا الاطلاع عليها مع اخلاص في الروايات ، وصدق في الشهادات . لكننا اقتصرنا على عرض اهم الافكار التي بين فيها المؤلف تطلعاً من الآداب العربية وتاريخها يحمده عليه اختصاصيونا . ولا بد من ان يطالع قراؤنا عليها ، وقد اوردناها مع معرفة قصر الباع في تأديه الكثير مما يروق مطالعه والاضطرار الى الاختصار ، على ان يستبيض القراء بمطالعة المتن الاصلي عما انتقصناه . وهذا المقال يكون صلة لما سبق المشرق ونشره في هذا الباب (٢٧ [١٩٢٩] ٦٨٤؛ ٣٨ [١٩٣٠] ٢٣ و٨٦٣) .

ف . ت .

ما هي العلاقة بين نشأة الفنّ القصصي الحديث ونشأة الاداب العربية العصرية ؟

قد يكون ذلك الفن بدأ في مصر حرّاً ليس فقط من تأثير السوريين ، ولكن من تأثير الفن الاوروبي ايضاً . لان الكتبة المصريين عرفوا في اليده خاصةً على القصص القديمة فاتخذوها مثالاً لهم ولم تظهر فيهم مظاهر التقليد الاوروبي الا في مؤلفاتهم الاخيرة . نشأ الفن القصصي عندهم وتطور لا بقوة حركة اجالية متواصلة ولكن بقوة عمل الاشخاص والافراد .

عديدة هي العلل التي سببت تأخر هذا الفن في مصر ، فمنها الميل للمؤلفات

(١) H. A. R. Gibb, *Studies in Contemporary Arabic Literature* [Bulletin of The Oriental Studies, London Institution, Vol. VII, Part I.]

القديمة ، وقلة عدد القراء مريدي القصص العصرية ، وهم يقرأونهـا في اللغتين الانكليزية والافرنسية . على ان ذلك العدد صار يزيد مع الزمان ويزيد طلبه للقراءة العربية فصاروا يعربون له الروايات الانكليزية او الافرنسية ولم يهتموا بالابتكار . بيد ان اقبال القراء على معرَّب الروايات مع ما فيها من جفاف ، ومع ابتعاد مواضيعها عن الموائد المصرية ، شجع الكتاب على الكتابة .

***

عرّب عثمان جلال رواية بولس وفرجيني تعريباً حافظ فيه على روح الرواية واساليبها . لكنه تصرّف فيها فعوّض عن الحكم الفلسفية ببعض الاشعار العربية ووافق في ذلك الذوق العربي ففاق نجاحاً المئات من الروايات المعرّبة . ورواية عثمان جلال بديعة ، وفيها محاسن لم يحصل عليها المنفلوطي في تعريبه للروايـة ذاتها . وان درس تلك الروايات المعربة لا يؤدي تعليمات مهمة على الحياة المصرية الاجتماعية . ولكن لا اقل من الاشارة اليهـا عنـد التفتيش عن نشأة الفن القصصي العصري في مصر .

من مزايا الكتبـة المصريين العصريين القصصيين ان يطعموا الاسلوب القصصي القديم بحمل موضوع حديث ، مع العناية بالانشاء والتصنع به ، والمثال في ذلك رواية « عذراء الهند » لاحمد شوقي . اخبارها خيالية غير معقولة ، لا في الحوادث ، ولكن في تسليط السحر والشعوذات عليها في كل صحيفة من صحائفها . ولكنها ورثت عن الفن القديم رشاقة الحركة واللطف ، وحيث لم يغالِ المؤلف في استعمال الخوارق والسحريات الجنية قراءة الرواية لذيذة لما فيها من حركة وحياة . على ان قيمة القصة القيمة انما هي في الاسلوب الانشائي الخاص بشوقي وانتخابه الالفاظ الطيبـة التي جعلت له مكانته في الادب العصري . وهناك السجع والقوافي في الكتابة يتخللها الشعر . ويا ليت تلك الجهود بذلت على مادة تساويها قيمةً ! . . .

ان المقامات لاقرب من غيرها من الاصناف الادبية شبهاً بالفن القصصي وقد صاروا يعالجونها بطريقة عصرية جددت شبابها . كان ناصيف اليازجي وعبد الله باشا فكري حتى اواخر القرن التاسع عشر قد حافظا فيها على الاسلوب

القديم . ولكن في العشر السنين التي سبقت سنة ١٩١٤ اخذ صنف المقامات يتطوّر ويظهر باسلوب عصري فاصطبغ بصبغة الادب الحديث ولقت انظارنا . اما المثال فيه فكتاب « حديث عيسى بن هشام » لمحمد ابراهيم المويلحي . واساس القصة : ان احد الباشاوات الذي عاش في عهد محمد علي بُعث الى الحياة في القاهرة زمان المؤلف . فاذا هو في محيط اوربي ! فاخذ يقابل بين احوال واحوال ويتقد تقليد الاوروبيين الاعمى . نجح المويلحي لا بسرد القصة ولكن بالاسلوب النقدي . واعيدت طبعة الكتاب وزيد عليها الرحلة الثانية . وهذه تجري حوادثها في باريس ، على ايام معرض ١٩٠٠ . ولعل المؤلف اتى فيها ببعض ما كان كتبه في القسم الاول . ان الكتاب نال شهرته خاصةً من انشائه اللماع ومن قوة وصفه . فانه سبق المقامة بمذاقه العصري وملاحة ذوقه ومزج بين السجع الفصيح وبين اللغة العامية في التخاطب . واسدل على السجع حلةً عصرية ، فانستنا الصبغة القديمة . وقد يضاهي المويلحي المنفلوطي رونق انشاء ويفوقه احياناً .

محمد حافظ ابراهيم (١٨٧١–١٩٣٢) زميل شوقي في عالم الشعر . الف « ليالي سطيح » . وهذه تمتّ الى صنف المقامات . تجري حوادثها بين جماعة يتجاذبون اطراف الحديث على الاحوال العصرية . وما بينهم يسمع صوت يتصدى الى اقوال المقل ، وهو لسان حال الناقد . ولم يواصل المؤلف عنايته حتى نهاية الكتاب انشاء فترك السجع الذي كان في اوائله . وكأن القراء استحبوا سذاجة الحديث فاستقبلوا الكتاب بالترحاب .

محمد لطفي جمعه كتب « ليالي روح الحائر » وقد نال نفوذ المدرسة الاميركية السورية ، فاستعمل الشعر المنثور . وجعل الكلام في كتابه على لسان روح لا جسم له ، ونقد الحياة المصرية الاجتماعية . وهو ايضاً على رونق انشائه لم يعطِ المادةَ قيمةَ الصورة .

في هذه المؤلفات مجهودات توافرت ، فتطوّر بها صنف جديد في الادب لبى طلب الجمهور وسدّ احتياجاته ، لما فيه من اتصال بمشاكل الساعة والنقد ، وقد يشتدّ رونقه من مخيلة الكتاب . على انهم لم يعالجوا المشكل بالنجاح ،

وكانت لهجتهم بلغة فصحى ابعد من ان ينالها فهم العامة، وعوض ان يكشفوا على آفاق جديدة ويداووا اسقام الحياة ويسدّوا احتياجاتها اكتفوا بان نبهوا الافكار الى تلك الاحتياجات واتبعوا نسق التعليم والارشاد فنظروا الى الادب نظرات القرون الوسطى فاكتفوه بالوعظ والارشاد، وسواء اتبعوا الاسلوب القصصي القديم او ترجموا كمثال جلال او المنفلوطي . والكتبة القصاص السوريون ذواتهم لم يتنبهوا دون ذلك النقص، وقد تظهر تلك المهمة حتى في القصص الغرامية التي دخلت في عالم النسيان منذ عهد بعيد . ومما اثر في تباطؤ نمو هذا الصنف احتقار المتمسكين بالادب القديم له ...

***

وفي غضونها دخلت اول قصة ، او رواية مصرية حقيقية في العالم الادبي غفلةً . ولم تلفت نظر العلماء المشتغلين بالقدم. وهي قصة زينب. الفها حسين هيكل وهو شابّ طموح الى النجاح. ولم يرد ان يستعرفها من قلمه فلم يوقع اسمه عليها لئلا تحول دون نجاحه في المحاماة . رواية زينب ظهرت فقطعت الصلة لغةً وانشاء وموضوعاً ونسقاً مع كل ما كان قد سبق من امثال ذلك في اللغة العربية. ليس بين هيكل وزيدان لو قرح انطون من صلة. وما كتابه الا قصة ابنة مصرية ، وفي تفاصيل حياتها عدة حوادث مأخوذة من الحياة الاهلية في الدلتا : زينب زوّجها اهلها بالرغم منها الى حسن . فاطاعت وظلّت امينة نحو زوجها . لكنها كانت قد مالت الى شاب قبل زواجها فحظت لذلك الشاب وداده وماتت كمدًا لما حشد في الجيش . في هذه الرواية نقائص شتى لكنها انموذج لادب جديد وحقيقة بنقد خصيص.

ان بناية هذه الرواية شائقة من واجهتين : الواجهة النفسية والواجهة الوصفية . اما الواجهة النفسية فالغاية منها البحث على رد فعل النفس المصرية تجاه الظروف المعاكسة.

لم ينجح المؤلف نجاحاً باهرًا في درسه، والشخصيات التي ادخلها على مسرح الرواية لا تبرز في اطوار مشتبكة تؤدي مادةً للبحث والتقليب ، الا شخصية حامد وهو ممثل على ما يظهر المؤلف نفسه . وضعيف ايضاً عمل تحريك الادوار

في مختلف المشاهد ومن ثم لم يتمكن المؤلف من التبسط في تحليل الاحوال النفسية فاشار اليها عرضاً وتعليقاً ، وبضمير الجمع المتكلم فتمّ عن افكاره الشخصية ليس الا ، وكذلك في الوصف . كتب كتابه وهو حبيس غرفته ، مريض في باريس ، فترك العنان الى مخيلته وذهب يصف مطولاً مصر ومشاهدها وطبيعتها واسهب حتى امل القارئ على ان المصريين احبوا ذلك الوصف على طوله ، وذوقهم في تقدير اوصاف بلادهم واخلاقها غير ذوقنا . وللمؤلف نظرات اجتماعية تزيد في كمال الرواية ، وعليها يلوح شبح هذه الفكرة : ان الشرور علتها كلها في بعض العوائد القديمة التي لم يريدوا ان يغيروها مع ان الدهر اكل عليها وشرب . وهذا التحليل لا يتعب القارئ كالوصف السابق ذكره ، وقد يأتي الكلام عفواً ويحمله على تحليل الاخلاق الاجتماعية والتربية النسائية وعلى اضرار النساء في الانعزال عن الحياة الاجتماعية . . وهناك ذم التربية التي تصير بمعزل عن احتياجات الحياة وهجو الاطباء وشيوخ الطرق الخ . . .

ويمتاز الانشاء بانتخاب الالفاظ والتراكيب النحوية . وبتأثره بالانشاء الافرنسي ، وقد اثر هيكل المتخرج من باريس بالصعوبة في كتابته بالعربية وتلك الصعوبة بينة . وقد يستعمل اللغة الدارجة اذا ما ادخل يشخصين من اهل العامة ويترك لذوي الخاصة من الذين تعلموا لهجتهم المعروفة .

اما مسرح المخيلة في هذه الرواية فاضيق مما هو معهود في امثالها في اللغات الاوروبية . وقد يطغى على ذلك المسرح تيار عواطف المؤلف المتقفي آثار الافرنسيين فكانه يعرب او يتصرف باصل افرنسي . ومع ذلك فالكتاب مصري حقاً ، فهو من مؤلف مصري ولقراء مصريين وعقدته الوسطى مأخوذة من موضوع مصري .

لما ظهر الكتاب سنة ١٩٠٠ لم يلتفت اليه الا قراء الخاصة . ولكنهم اعادوا طبعه سنة ١٩٢٩ عند طلب الجمهور ، فازدادت قيمته بتوقيع اسم المؤلف عليه زيادة العاطفة الوطنية ، وظهوره موضوعاً لرواية سينمائية .

وصار الكتاب في غضونها هدفاً للتقريظ والنقد . على ان مقالات هيكل وعبد الله عنان في السياسة الاسبوعية في اوائل السنة ١٩٣٠ كانت اهم من

رواية زينب فيما يخص مشكل نمو الرواية في مصر الذي عنينا بمعالجته .

ـ ان للمصريين غريزة فطرية للحكايات والقصص ، فلماذا نصيب القصص قليل من الحياة الادبية المصرية . هناك عدة اسباب : منها قلة مقدرة المخيلة البناءة ، والفرق بين لغة التخاطب ولغة الرواية او الادب ، وقلة عدد الكتبة المصريين . ولكن في الحقيقة ليست تلك هي الاسباب المفسرة عدم نجاح الفن القصصي في مصر .

بل هي في نظر هيكل بك كثرة عدد الاميين،وقلة ما يشجعون الكاتب الروائي مادياً وادبياً ، وقلة ما تؤديه له الطبقة النافذة الكلمة والغنية من المساعدة ؛ ولعل ذلك الفتور متأتٍ من النساء لانهن لم يساعدن على الادب القصصي مساعدة النساء الافرنجيات في القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسة . اضف الى تلك العلل علة مزاحمة قادة الفكر ومنافرتهم المتواصلة في مصر . واهتمام الناس بالامور الاقتصادية والسياسية فحسب ، واهتمام الكتبة بجرافاتهم بالاخبار السياسية اولاً ! كل ذلك يحول دون مساعدة الكتبة على التأليف والاختصاص ومن ثم لا صنف حقيقي للادب الروائي العصري في مصر .

اما عنان فلم يشاطر هيكل افكاره كلها بل وضع سبب تأخر الصنف الروائي في حالة المرأة المصرية وقال :سوف تبقى الحالة الى ان تتغير حالة المرأة :

استطعنا ان نقطع بان المجتمع الاخلاقي لا يمكن ، متى بقي تطوره وتقدمه محصورًا في المبادئ الاسلامية الخالدة او في التقاليد التي كانت اثرًا لهذه المبادئ ، ان يمد كتاب القصص العربي يوماً بمادة واسعة او غزيرة كالتي يقدمها المجتمع الغربي الى كتاب الغرب او ان يغدو الاثر الذي يفسحه للمرأة ذات يوم رحباً للفن او للخيال .

فنال هذا المقال جواب هيكل . ترك الاسباب الخارجية التي ذكرناها وذهب متعمقاً في البحث على الاسباب التي تجعل القصص والحكايات في مصر دون ما هي في العالم الغربي . قال ان عاطفة الحب التي تنمو وتنشأ في محيط عائلي دافئ لطيف يساعد على ازدهارها فيفوح منها عطر المحبة الطبيعية بما فيها من الفضائل انما هي مشهد من مشاهد الجمال الادبي ا واجل ما تكون انما

في ربيعها ومن غير ان تبلغ بتطورها الى غايتها المادية ، وان التربية في مصر لا تؤهب لتلك العواطف اللطيفة وذلك لان الحب المادي [او الحيواني] انما هو الذي يبلغ اليه الكاتب حالًا في وصفه . وقبل ان تتعاقب اجيال من الناس سوف لا تتربى تلك العواطف في النفس المصرية .

ومن جملة من تناولوا الكلام ردًا على هيكل زكي مبارك في مقال على « حياتنا الادبية » قال : ان الصنف القصصي او الروائي انما هو دون سائر الاصناف الادبية منزلةً . وما هي يا ترى اهمية تلك القصص الغرامية ؟ فهي التي تفسد المصريين وقد يُستغنى عنها بالقصيدة او الرسالة . وعلى الادب الحديث ان ينظر الى الماضي ويقتبس منه روحه لا ان يغترّ بمظاهر القصص العصرية الفاجرة الخاوية .

ومهما يكن من امر المناقشة فالواقع هو ان هناك بين متوسط الناس من يلتذون بقراءة الروايات ، وهم الذين شجعوا الكتبة على الخوض في ميدان الكتابة القصصية الروائية العصرية في مصر .

ولا حقيقة للقول ان الادب المصري اذا ما عوّل على التعريب افتقر وخسر من مزاياه . وهناك الادب التركي والهندي وما فيها من اقتباسات عن الاداب الاجنبية ، ومع ذلك لم يفقدا من مزاياهما شيئاً بل استفادا واغتنيا . . .

وهناك عقبة كؤود لا بد من تذليلها اعني بها امر اللغة التي يستعملونها في القصص وقد عالجها محمد تيمور (١٨٩٢–١٩٢١) . وان المشكل ليس خاصاً باللغة العربية . ولكنه مشترك بين اللغات التي لم تنل من تدوينها بالكتابة القواعد المثبتة ارضاءها في الاستعمال ، ومنها كثير في البلاد الاوربية . استعمل تيمور في التخاطب اللغة العامية في كتابه « الشيخ جمعه » ثم في طبعة الكتاب الثانية غير اسلوب الكلام فجعله متوسطاً بين الدارج والفصيح ، ويسهل فيه على القارئ ان يستنطق كل شخص من اشخاص الرواية بلهجته لما في الانشاء من بساطة . ولكن مشكل اللغة العامية واستعمالها في التخاطب غير مشوهة باللحن سوف ينحل من ذاته مع نمو التعليم الابتدائي بين العامة واستعمال الكلام مضبوطاً بضوابطه المهمة .

وخلاصة ما سبق ظاهرة في درس روايات نقولا الحداد صاحب مجلة السيدات والرجال . نجح في كتابه القصصي الشائقة في اجزائها التي تصلح للصحف

اليومية اذ يختم كل عدد بما يشوق الى غيره او الى كماله. لكنه رخو في عقد العقد القصصي المصري. وليس فيه ما يشير اكيداً بتأثير على مصير الفن. واسوغ منه محمد فريد ابو حديد . الف ابنة المملوك ، وهي رواية تاريخية افاق فيها اسلوب زيدان فلم يعلق القصة على الاخبار التاريخية ولكن وضعها في مسرح تاريخي. ولم يتفنّ وينفخ ببوق البطولة بل اقتصر على ابراز الحوادث في جو الحياة الواقعية . لم يتجنب جفاف الاسلوب الروائي القديم . ومع ذلك فهو شائق بتصويره الشخصيات.

اما احدث الروايات واهمها منذ ظهور زينب فهو كتاب المازني المعنون « ابراهيم الكاتب ». ترك المؤلف لغة التخاطب واستعمل الفصحى لانها بنظره امرن من العامية او البسيطة واخذ من حياة مصر الاجتماعية مادة لكتابته يعتبرها كافية، على ان تكون للكاتب المخيلة ! وفي كتابه من العقد والطريق الى حلها ما يُعدّ خير ما ظهر من ذلك في اللغة العربية ؛ هناك الحس الدقيق واللطف والقصص الحي. ولكن في الحقيقة ليست الرواية مصرية بالمعنى الذي ادعاه المازني . فان بطل الرواية انما هو غربي باخلاقه ، وقليلون المصريون الذين يستغرقون انفسهم في شخصيته. ودرس الحب ، وتحليله ، والبيئة التي يظهر فيها كل ذلك لغربي هو . واللغة ذاتها وبعض التعابير يستشمّ منها رائحة الغرب. وفي الكتاب جزءان فالاول تبرز فيه المظاهر المصرية خاصةً . اما الثاني فكانه يصف عالماً غير العالم الاول. وفيه الوان قاتمة لا تلبث ان تتضاءل وتتلاشى مع تلاشي شخصية البطل. وكتاب المازني يمتّ الى الغرب ايضاً بكونه مقتبساً عن رواية روسية.

***

ومن ثم فالرواية المصرية ، فيما تظهر عليه في تأليف افضل ممثليها ، لا تزال بعيدة عن تحقيق المثال الاعلى المطلوب منها ، وهمزة الوصل بين المقدرة الصناعية والوحي المصري لم تدخل بعد في الوجود . وما دامت هذه الهمزة مفقودة فسوف يقتات عامة القراء في مصر من الفتات التي تسقط من سفرة غيرهم، الى ان يوفق الكتبة المصريون الى الابتكار في خلق صنف جديد. اما هذا الجديد فلم تظهر طلائعه بعد .